

فصل

في غزوة بدر الكبرى

فلما كان في رمضان من هذه السنة بلغ رسول الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام لقريش صحبة أبي سفيان، وهي العير التي خرجوا في طلبها لما خرجت من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموال عظيمة لقريش .

فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضراً بالنهوض، ولم يحتفل لها احتفالاً بليغاً؛ لأنه خرج مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان : فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون بعيراً، يعتقب^(١) الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، فكان رسول الله ﷺ وعلى، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً^(٢)، وزيد بن حارثة، وابنه، وكبشة موالى رسول الله ﷺ يعتقبون بعيراً، وأبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة ابن عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مُصْعَب بن عُمَيْر، والراية الواحدة إلى علي بن أبي طالب، والأخرى التي للأَنْصار إلى سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صَعْصَعَة، وسار، فلما قرب من الصفراء بعث بِسْبَس^(٣) بن عمرو

(١) في خ : «يعقب»، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٢٥٥، ٢٥٦)، والذي في مسند الإمام أحمد (١ / ٤١١) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٣٩٠١) : «إسناده صحيح» : «وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ ...» .

(٣) في خ، هـ : «نيسيس»، وما أثبتناه من ق ، ك .

الجهنى، وعدى بن أبى الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار العير .

وأما أبو سفيان فإنه بلغه مخرج رسول الله ﷺ، وقصده إياه، فاستأجر ضُمُضَمَ ابن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخا لقريش بالنفير إلى غيرهم ليمنعوه من محمد وأصحابه، وبلغ الصريخ أهل مكة فنهضوا مسرعين، وأوعبوا فى الخروج، ولم يتخلف من أشrafهم أحد سوى أبى لهب، فإنه عَوَّض عنه رجلا كان له عليه دين، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عَدِيّ، فلم يخرج معهم منهم أحد .

وخرجوا من ديارهم كما قال الله تعالى : ﴿بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال : ٤٧] وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ : «بِحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ تُحَاذِلُ اللَّهُ»^(١) وتحاذ رسولهُ»^(٢)، وجاؤوا على حَرْدٍ قادرين، وعلى حمية، وغضب، وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه، لما يريدون من أخذ غيرهم وقتل من فيها، [وقد]^(٣) أصابوا بالأسمر عمرو بن الحضرمي، والعير التى كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال : ٤٢] .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش، استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون، فأحسنوا، ثم استشارهم أنبياء، فتكلم المهاجرون، فأحسنوا، ثم استشار ثالثا، ففهمتم الأنصار أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله، كأنك تُعَرِّضُ بنا؟ وكان إنما يعنيهم؛ لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأسود والأحمر فى ديارهم،

(١) فى خ، هـ : «تحاذه»، وما أثبتناه من ق.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٤)، وفيه قول النبى ﷺ : «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ...» .

(٣) ليست فى ق، ك، هـ، وما أثبتناه من خ .

فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم .

فقال له سعد : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى [حقاً]^(١) عليها ألا ينصروك إلا في ديارها، وإنى أقول عن^(٢) الأنصار وأجيب عنهم : فاطعن حيث شئت، وصل جبل من شئت، واقطع جبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن^(٣) معك، ووالله لئن استعرضت^(٤) بنا هذا البحر لخضناه^(٥) معك .

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال [قوم]^(٦) موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، ومن بين يديك، ومن خلفك .

فأشرق وجه رسول الله ﷺ، وسر بها سمع من أصحابه وقال : «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإنى قد رأيت مصارع القوم»^(٧) .

فسار رسول الله ﷺ إلى بدر، وخفّض أبو سفيان، فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش : أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتحارزوا عيركم، فأتاهم الخبر، وهم بالجحفة، فهتموا بالرجوع، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدرا، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، وتخافنا العرب بعد ذلك .

(١) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٢) في خ : «على»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) في خ : «ليسيرون»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٤) في خ : «استعرضت»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٥) في خ : «ليسيرون»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٦) ليست في ق، ك، وما أثبتناه من خ، هـ .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٨)، ونحوه رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٩ / ٨٣) .

فأشار الأحنس بن شريق عليهم بالرجوع، فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدرا زهرى، فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأحنس، فلم يزل فيهم مطاعا معظما، وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل وقال : لا تفارقنا هذه العصاة حتى نرجع .

وساروا وسار رسول الله ﷺ حتى نزل عشيا أدنى ماء من مياه بدر، فقال : «أشيروا على في المنزل»، فقال الحُبَابُ بن المنذر : يا رسول الله، أنا عالم بها وبقلبها، إن رأيت أن نسير إلى قَلْبٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فنزل عليها، ونسبق القوم إليها، ونُعَوِّرَ ما سواها من المياه ^(١) .

وسار المشركون سراعا يريدون الماء، وبعث عليا وسعدا والزيبر إلى بدر يلتسمون الخبر، فقدموا بعبدین لقريش ورسول الله ﷺ قائم يصلى، فسألها أصحابه : من أنتم؟ فقالا : نحن سقاء لقريش، فكره ذلك أصحابه، وودوا ^(٢) لو كانا لغير أبى سفيان .

فلما سلم رسول الله ﷺ قال لهما : «أخبرانى أين قريش؟» قالا : وراء هذا الكثيب، فقال : «كم القوم؟» فقالا : لا علم لنا فقال : «كم ينحرون كل يوم؟» فقالا : يوما عشرا ويوما تسعا، فقال [رسول الله] ﷺ ^(٣) : «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»، فأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحدا، فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا طهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطأ به الأرض، وصَلَّبَ الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم .

(١) البخارى فى المغازى (٣٩٥٢)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ودلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٤٥، ٤٦) .

(٢) فى خ : «وودّا»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

فسبق رسول الله ﷺ والمسلمون إلى الماء، فزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض، وبني لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تلٍّ يشرف على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله»، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته ^(١).

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعان، قال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها، جاءت تحادك، وتكذب رسولك»، وقام ورفع يديه واستنصر ربه وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك»، فالتزمه الصديق من ورائه، وقال: يا رسول الله، أبشر، فوالذي نفسي بيده، لينجزن الله لك ما وعدك ^(٢).

واستنصر المسلمون الله، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، فأوحى الله إلى ملائكته: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأوحى إلى رسوله: ﴿أَنِّي مُبَدِّدُكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] قرئ بكسر الدال وفتحها، فقليل: المعنى: إنهم ردف لكم، وقيل: يردف بعضهم بعضاً أرسالا لم يأتوا ^(٣) دفعة واحدة.

فإن قيل: هاهنا ذكر أنه أمدهم بألف، وفي «سورة آل عمران» قال: ﴿إِذْ نَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ﴾ ^(٤) بَلَىٰ إِن نَّصِيرُوا وَتَقَوُّوا وَيَأْتُوكُمْ مِّن قَوَرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

(١) أحمد (١/ ١١٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٩٤٨): «إسناده صحيح»، وقال الهيثمي في المجمع

(٦/ ٧٨، ٧٩): «رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب، وهو ثقة». والكثير: ما

اجتمع من الرَّمْل.

(٢) مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣/ ٥٨)، وأحمد (١/ ٣٠، ٣١).

(٣) في هـ: «يأتونه»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران] فكيف الجمع بينهما؟

قيل : قد اختلف في هذا الإمداد الذي بالثلاثة آلاف، وبالخمسة على قولين :

أحدهما : أنه كان يوم أحد، وكان إمدادا معلقا على شرط، فلما فات شرطه فات الإمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل، وإحدى الروایتين عن عكرمة .

والثاني : أنه كان يوم بدر، هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة .

والرواية الأخرى عن عكرمة اختاره جماعة من المفسرين، وحجة هؤلاء أن السياق

يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٢٢﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مُنْزَلِينَ ﴾ ﴿١٢٣﴾ [آل عمران] إلى أن قال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، أى :

هذا الإمداد ﴿ إِلَّا بُشِّرْ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبَكُمْ بِهِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] قال هؤلاء :

فلما استغاثوه أمدهم [بألف ثم أمدهم ^(١)] بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة

آلاف لما صبروا واتقوا ، وكان هذا التدرج ومتابعة الإمداد أحسن موقعا وأقوى

لنفوسهم، وأسَرَّ لها من أن يأتي به دفعة [واحدة] ^(٢) وهو بمنزلة متابعة الوحي

ونزوله مرة بعد مرة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة في سياق أحد، وإنما دخل ذكر بدر اعتراضا في

أثنائها ^(٣) ، فإنه سبحانه قال : ﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٢٢﴾ [آل عمران] ، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

(١) ساقط من المطبوع.

(٢) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٣) في هـ : «إتيانها»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ [آل عمران]، فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ [آل عمران]، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط وذلك مطلق، والقصة في «سورة آل عمران» هي قصة أحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضا والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في «آل عمران» غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا: أن قوله: ﴿وَيَأْتُواكُم مِّنْ قَوَرِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]، قد قال مجاهد: إنه يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا القدر كان يوم بدر، وإتيانهم من قورهم هذا يوم أحد، والله أعلم.

فصل

وبات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هناك، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها واصطف الفريقان، فمشى حكيم بن حزام، وعتبة بن ربيعة في قريش أن يرجعوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل، وجرى بينه وبين عتبة كلام^(١) أحفظه، وأمر أبو جهل أخا عمرو بن الحضرمي أن يطلب دم أخيه عمرو^(٢)، فكشف عن استه وصرخ: واعمره، فحمى القوم، ونشبت الحرب، وعدل رسول الله ﷺ الصفوف، ثم رجع

(١) في خ: «كلاما»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٢) في خ: «عمرا»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

إلى العريش، هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ وقوم من الأنصار على باب العريش، يحمون رسول الله ﷺ .

وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار : عبد الله بن رواحة، وعوف ومعوذ ابنا عفراء، فقالوا لهم : من أنتم؟ فقالوا : من الأنصار، قالوا : أكفاء كرام، وإنما نريد بنى عمنا .

فبرز إليهم على وعبيدة بن الحارث وحمزة فقتل على قِرْنَه الوليد، وقتل حمزة قرنه عتبة، وقيل : شيبة، واختلف عبيدة وقرنه ضربتين، فكَرَّ حمزة وعلى على قِرْن عبيدة، فقتلاه واحتملا عبيدة^(١)، وقد قطعت رجله، فلم يزل ضَمِنًا حتى مات بالصَّفراء^(٢) .

وكان على ﷺ يقسم بالله : لنزلت هذه الآية فيهم : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رِيحِهِمَا﴾ [الآية [الحج : ١٩]]^(٣) .

ثم حمى الوطيس واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهاال، ومناشدة ربه - عز وجل - حتى سقط رداؤه عن منكبه فرده عليه الصديق، وقال : [يكفيك]^(٤) بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك^(٥) .

فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، وأخذ القوم النعاس في حال الحرب، ثم رفع

(١) أبو داود في الجهاد (٢٦٦٥)، وأحمد (١١٧/ ١)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٩٤٨) : «إسناده صحيح» .

(٢) الحاكم في المستدرک (٣/ ١٨٧، ١٨٨)، وقال : «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي .

(٣) البخاري في التفسير (٤٧٤٤)، وفي مسلم في التفسير (٣٠٣٣/ ٣٤)، والنسائي في الكبرى في السير (٤٦٤٨) .

(٤) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٥) مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣/ ٥٨) .

رسول الله ﷺ رأسه وقال: «أبشر يا أبا بكر! هذا جبريل على ثنياه النّقع»^(١).

وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيد رسوله، والمؤمنين، ومنحهم أكتاف المشركين أسراً، وقتلاً، فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين.

فصل

ولما عزموا على الخروج ذكروا ما بينهم وبين بنى كِنانة من الحرب، فَبَدَّى لهم إبليس في صورة سُرّاقة بن مالك المُدَلِّجِي، وكان من أشراف بنى كِنانة، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم من أن تأتیکم كِنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا، والشيطان جار لهم^(٢) لم يفارقهم، فلما تعبوا للقتال، ورأى عدو الله جند الله قد نزلت من السماء فر، ونكص على عقبيه، فقالوا: إلى أين يا سُرّاقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب^(٣)، وصدق في قوله: إني أرى ما لا ترون، وكذب في قوله: إني أخاف الله، وقيل: كان خوفه على نفسه أن يهلك معهم، وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون، ومن في قلبه مرض قلة حزب الله، وكثرة أعدائه ظنوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، فقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فأخبر سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدَد، والله عزيز لا يغالب، حكيم ينصر من يستحق النصر، وإن كان ضعيفاً، فعزته، وحكمته أوجبت نصر الفئة المتوكله عليه.

ولما دنا العدو وتواجه القوم قام رسول الله ﷺ في الناس فوعظهم، وذكرهم بما

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٩)، وتفسير ابن كثير عند الآية ٩ من سورة الأنفال. والنّقع: الغبار.

(٢) في هـ: «جارهم»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٠٤).

لهم في الصبر والثبات، من النصر والظفر العاجل، وثواب الله [عليه]^(١) الآجل، وأخبرهم أن الله قد أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله، فقام عُمَيْرُ بْنُ الحُثَمَاءِ فقال : يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال : «نعم» .

قال : بخ بخ يا رسول الله، قال : «ما يملكك على قولك : بخ بخ؟» قال : لا والله، يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال : «فإنك من أهلها»، قال : فأخرج تمرات من قَرْنِه فجعل يأكل منهن، ثم قال : لئن حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بها كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل^(٢) فكان أول قتيل .

وأخذ رسول الله ﷺ ملء كفه من الحصاء فرمى بها وجوه العدو، فلم تترك رجلا منهم إلا ملأت عينيه، وشغلوا بالتراب في أعينهم، وشغل المسلمون بقتلهم، فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال : ١٧]^(٣) .

وقد ظن طائفة أن^(٤) الآية دلت على نفى الفعل عن العبد، وإثباته لله، وأنه هو الفاعل حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع، ومعنى الآية : أن الله - سبحانه - أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال .

(١) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٢) مسلم في الإمامة (١٩٠١ / ١٤٥)، وأحمد (١٣٦ / ٣)، (١٣٧) .

وقوله : «بَخْ بَخْ» : هي كلمة تقال عند المدح والرِّضا بالشئ، وتكرر للمبالغة، ومعناها تعظيم الأمر وتفخيمه . والقَرْن . الجَعْبَة .

(٣) الطبراني في الكبير (١١ / ٢٨٥) (١١٧٥٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ٨٧) : «رجال رجال الصحيح» .

(٤) في هـ : «على أن»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

وكانت الملائكة يومئذ تبادر المسلمين إلى قتل أعدائهم، قال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسَّوْطِ فوقه، وصوت الفارس فوقه يقول : أقدم حَيْزُوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيا، فنظر إليه، فإذا هو قد خُطِمَ أنفه وُسُقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضَّرَ ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال : « صدقت، ذلك من مدد السَّاءِ الثالثة »^(١).

وقال أبو داود المازني : إنني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري^(٢).

وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا، فقال العباس : إن هذا والله، ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، من أحسن الناس وجهها، على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصارى : أنا أسرته يا رسول الله، فقال : « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم »، وأسر من بنى [عبد]^(٣) المطلب ثلاثة : العباس، وعَقِيل، ونوفل بن الحارث^(٤).

وذكر الطبراني في معجمه الكبير، عن رِفَاعَةَ بن رافع، قال : لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركون يوم بدر، أشفق أن يخلص إليه القتل، فتشبث^(٥) به الحارث ابن هشام، وهو يظنه سراقا بن مالك، فوكز في صدر الحارث، فألقاه، ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه، وقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي،

(١) مسلم في الجهاد (١٧٦٣ / ٥٨).

(٢) أحمد (٤٥٠ / ٥)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢٧٥ / ٢) بإسناد حسن.

(٣) ليست في ق، ك، هـ، وما أثبتناه من خ.

(٤) أحمد (١ / ١١٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٩٤٨) : «إسناده صحيح»، وقال الهيثمي في المجمع

(٧٨ / ٧٩) : «رجال أحمد رجال الصحيح».

والفرس الأتلق : ما فيه سواد وبياض.

(٥) في هـ : «فتشبث»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

وخاف أن يخلص إليه القتل .

فأقبل أبو جهل بن هشام فقال : يا معشر الناس ، لا يهزم منكم خذلان سراقه إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يَهُولُكُمْ قتل عتبة وشيبة والوليد فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نفرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلا منكم قتل منهم رجلا ، ولكن خذوهم أخذًا حتى نعرفهم سوء صنيعهم ^(١) .

واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم ، فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه فأجبه الغداة ، اللهم أينما كان أحب إليك ، وأرضى عندك فانصره اليوم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال] .

ولما وضع المسلمون أيديهم في العدو يقتلون ، ويأسرون ، وسعد بن معاذ واقف على باب الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ ، وهى العريش ، متوشحًا بالسيف في ناس من الأنصار ، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية ^(٢) لما يصنع الناس ، قال رسول الله ﷺ : «كأنك تكره ما يصنع الناس ؟» ، قال : أجل والله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين ، وكان الإثخان في القتل أحب إلى من استبقاء الرجال ^(٣) .

ولما بردت الحرب وولَّى القوم منهزمين ، قال رسول الله ﷺ : «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟» ، فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنه ^(٤) عفراء ، حتى برَدَ ،

(١) الطبراني في الكبير (٤٧ / ٥) (٤٥٥٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ٨٠) : «فيه عبد العزيز بن عمران ، وهو ضعيف» .

(٢) في خ : «الكراهة» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٢٧٠ ، ٢٧١) .

(٤) في هـ : «أبناء» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

وأخذ بلحيته، فقال : أنت أبو جهل ؟ فقال : لمن الدائرة اليوم ؟ فقال : لله ولرسوله ، وهل أخزأك الله يا عدو الله ؟ فقال : وهل فوق رجل قتلته قومه ؟ فقتله عبد الله ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : قتلته ، فقال : «الله الذي لا إله إلا هو» فرددها ثلاثا ، ثم قال : «الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، انطلق فأرنيه» ، فانطلقنا فأريته إياه فقال : «هذا فرعون هذه الأمة»^(١) .

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف ، وابنه عليا ، فأبصره بلال ، وكان أمية يعذبه بمكة ، فقال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجاء ، ثم استوحي جماعة من الأنصار ، واشتد عبد الرحمن [بن عوف]^(٢) بهما يُجرزهما^(٣) منهم ، فأدركوهم ، فشغلهم عن أمية بابنه ، ففرغوا منه ، ثم لحقوهما ، فقال له عبد الرحمن : ابرك ، فبرك فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن بن عوف ، قال له أمية قبل ذلك : من الرجل المعلم في صدره بريشة نعامة ؟ فقال : ذاك^(٤) حمزة بن عبد المطلب ، فقال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل ، وكان مع عبد الرحمن أدرع قد استلبها ، فلما رآه أمية قال له : أنا خير لك من هذه الأدرع ، فألقاها وأخذه ، فلما قتله الأنصار كان يقول : يرحم الله بلالا فجعني بأدراعي ، وبأسيري^(٥) .

وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن ، فأعطاه النبي ﷺ جذلا من حطب ، فقال : «دونك هذا» ، فلما أخذه عكاشة وهزه ، عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيض ،

(١) البخاري في المغازي (٣٩٦٢) ، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٠ / ١١٨) ، وأحمد (٣ / ١٢٩ ، ١١٥) . وقوله : «برد» : أي مات . ومعنى قوله : «هل فوق رجل قتلته قومه؟» : أي هل على عار غير قتلكم إياي .

(٢) ليست في خ ، ق ، ك ، وما أثبتناه من هـ .

(٣) في هـ : «يجوزهما» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٤) في هـ : «ذلك» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٢٧٣) ، ونحوه عند البخاري في الوكالة (٢٣٠١) . وقوله : «استوحي» : أي استصرخ .

فلما نزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر^(١).

ولقى الزبير عُبَيْدَةَ بن سعيد بن العاص، وهو مُدَجَّجٌ في السلاح لا يرى منه إلا الحَدَقَ، فحمل عليه الزبير بحريته فطعنه في عينه فمات، فوضع رجله على الحربة ثم تخطى فكان الجهد أن نزعهما، وقد انثنى طرفاها، [قال عروة]^(٢): فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه^(٣)، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه، فلما قبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان فأعطاه، فلما قبض عثمان وقعت عند آل علي فطلبها عبد الله بن الزبير، وكانت عنده حتى قتل^(٤). وقال رفاعه بن رافع: رميت بسهم يوم بدر ففُقِئْتُ عيني، فَبَصَقَ فيها رسول الله ﷺ ودعالي، فما آذاني منها شيء^(٥).

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى، فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبികم، كذبتُموني، وصدقني الناس، وخذلتُموني، ونصرني الناس، وأخرجتُموني، وآوانني الناس»^(٦).

ثم أمر بهم فسحبوا إلى قَلِيب^(٧) من قُلُب بدر، فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم^(٨) ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً»، فقال عمر بن الخطاب:

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٧٨)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٩٨، ٩٩).

(٢) ليست في ق، ك، هـ، وما أثبتناه من خ.

(٣) في خ: «فأعطاه»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٤) البخاري في المغازي (٣٩٩٨).

(٥) كشف الأستار (١٧٧١)، والطبراني في الكبير (٥/ ٤٢) (٤٥٣٥)، وقال الهيثمي في المجمع

(٦/ ٨٥): «فيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف»، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٠٠).

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٨١).

(٧) القَلِيب: البئر، ويجمع على قُلُب.

(٨) في هـ: «وعد»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

يا رسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جَيَّقُوا؟ فقال: «والذي نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب»^(١)، ثم أقام رسول الله ﷺ بالعَرَصَة ثلاثاً، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرضتهم ثلاثاً^(٢).

ثم ارتحل مؤيدا منصورا قرير العين بنصر الله [له]^(٣)، ومعه الأسارى، والمغانم، فلما كان بالصفراء قسم الغنائم، وضرب عنق النضر بن الحارث بن كَلْدَة، ثم لما نزل بِعِرْقِ الظُّبَيْة ضرب عنق عقبة بن أبي مُعَيْط.

ودخل رسول الله ﷺ المدينة مؤيدا، مظفرا، منصورا، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحيث دخل عبد الله بن أُبَيّ المنافق، وأصحابه في الإسلام ظاهرا.

وجملة من حضر بدرا من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أحد وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون، وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج، وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكة، وأصبر عند اللقاء: أن منازلهم كانت في عوالم المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: «لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرا»، فاستأذنه رجال ظهورهم في علو المدينة أن يستأنى بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم فأبى^(٤)، ولم يكن عزمهم على اللقاء، ولا أعدوا له عدته، ولا تأهبوا له أهبته، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلا: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس، وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر، والأسارى في شوال^(٥).

(١) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٤ / ٧٧)، والنسائي في الجنائز (٢٠٧٥).

(٢) البخاري في المغازي (٣٩٧٦)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٥)، والترمذي في السير (١٥٥١).

والعَرَصَة: هي كل موضع واسع لا بناء فيه.

(٣) ليست في ق، ك، هـ، وما أثبتناه من خ.

(٤) مسلم في الإمارة (١٩٠١ / ١٤٥)، وأحمد (١٣٦ / ٣).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٣٤٥، ٣٤٦)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ١٢، ١٣).

فصل

ثم نهض بنفسه صلوات الله وسلامه عليه بعد فراغه بسبعة أيام إلى غزو بنى سُلَيْم، واستعمل على المدينة سَبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ، وقيل : ابن أم مكتوم، فبلغ ماء يقال له : الكُدْر، فأقام عليه ثلاثا، ثم انصرف، ولم يلق كيدا^(١).

فصل

ولما رجع قُلُ^(٢) المشركين إلى مكة موتورين، محزونين نذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه ماء، حتى يغزو رسول الله ﷺ، فخرج في مائتي راكب حتى أتى العُرَيْضَ في طرف المدينة، وبات ليلة واحدة عند سَلَامَ بْنِ مِشْكَمَ اليهودي، فسقاه الخمر، وبَطَنَ له من خبر الناس، فلما أصبح قطع أصوارا^(٣) من النخل، وقتل رجلا من الأنصار، وحليفا له، ثم كَرَّ راجعا، ونذر به رسول الله ﷺ، فخرج في طلبه، فبلغ قَرْقَرَةَ الكُدْرِ، وفاته أبو سفيان، وطرح الكفار سَوِيقا كثيرا من أزوادهم يتخفون به، فأخذها المسلمون فسميت غزوة السَّوِيق، وكان ذلك بعد بدر بشهرين^(٤).

فصل

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذى الحجة، ثم غزا نجدا يريد غَطَفَانَ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٥، ٦)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٢٧).

(٢) يُقال : فَلَلْتُ الجيش أى : كسرتة، وَقَوْمٌ قُلٌ : منهزمون.

(٣) الْأَصْوَارُ : جمع صُور، وهو النخل الصغار.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ٦، ٧)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٢٢، ٢٣). والسَّوِيق : ما يُعمل من الحِنطة والشعير.

واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأقام هناك صفراً كله من السنة الثالثة، ثم انصرف، ولم يلق حرباً^(١).

فصل

فأقام بالمدينة ربيعاً^(٢) الأول، ثم خرج يريد قريشاً، واستخلف^(٣) على المدينة ابن أم مكتوم، فبلغ بَحْرَان مَعْدِنَا بالحجاز من ناحية الفُزْع، ولم يلق حرباً، فأقام هنالك ربيعاً الآخر^(٤)، وجهادى الأولى، ثم انصرف إلى المدينة^(٥).

فصل

ثم غزا بنى قينقاع، وكانوا من يهود المدينة فنقضوا عهده، فحاصروهم خمس عشرة^(٦) ليلة حتى نزلوا على حكمه، فشفع فيهم عبد الله بن أبى وألح عليه، فأطلقهم له، وهم قوم عبد الله بن سلام، وكانوا سبعمئة مقاتل، وكانوا صاغة وتجاراً^(٧).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٨ / ٣)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٢٦).

(٢) في خ: ق: «ربيع»، وما أثبتناه من ك، هـ.

(٣) في هـ: «استعمل»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) في خ: «ربيع الآخرة»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٨ / ٣)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٢٦).

(٦) في هـ: «خمسة عشر»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (٩ / ٣ - ١١)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٢١، ٢٢).

فصل

في قتل كعب بن الأشرف

وكان رجلا من اليهود، وأمه من بنى النضير، وكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ وكان يُشَبَّبُ في أشعاره بنساء الصحابة، فلما كانت وقعة بدر ذهب إلى مكة، وجعل يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، ثم رجع إلى المدينة على تلك الحال، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»، فانتدب له ^(١) محمد بن مسلمة، وعَبَّاد بن بشر، وأبو نائلة واسمه سَلْكَانُ بن سلامة ^(٢)، وهو أخو كعب من الرضاع، والحارث بن أوس، وأبو عَبْس بن جبر، وأذن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا ما شأؤوا من كلام يخدعون به .

فذهبوا إليه في ليلة مقمرة، وشيعهم رسول الله ﷺ إلى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فلما انتهوا إليه قدموا سَلْكَانَ بن سلامة إليه، فأظهر له موافقته على الانحراف عن رسول الله ﷺ وشكا إليه ضيق حاله، وكلمه في أن يبيعه وأصحابه طعاما، ويرهنونه سلاحهم، فأجابهم إلى ذلك .

فرجع سَلْكَانُ إلى أصحابه، فأخبرهم، فأتوه، فخرج إليهم من حصنه، فتماشوا فوضعوا عليه سيوفهم، ووضع محمد بن مسلمة مِغْوَلًا ^(٣) كان معه في ثَنَّتِه ^(٤) فقتله،

(١) في ق: «منه»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٢) في خ، ق، هـ: «سلام»، وذكر بعدها سلامة، وما أثبتناه من ك.

(٣) المِغْوَل - كما في النهاية في غريب الحديث: شُبُه سيف قصير، يشتمل به الرجل تحت ثيابه. وقيل: هو حديدة دقيقة له حد ماضي وقفا. وقيل: هو سَوْط في جوفه سيف دقيق يشده الفاتك على وسطه.

ليغثل به الناس.

(٤) الثَّنَّة: ما بين السُرَّة والعانة من أسفل البطن.

وصاح عدو الله صيحة شديدة أفزعت من حوله، وأوقدوا النيران .

وجاء الوفد حتى قدموا على رسول الله ﷺ من آخر الليل، وهو قائم يصلي، وجرح الحارث بن أوس ببعض سيوف أصحابه، فتفل عليه رسول الله ﷺ فبرئ، فأذن رسول الله ﷺ في قتل من وجد من اليهود؛ لنقضهم عهده ومحاربتهم لله ولرسوله^{(١)(٢)} .

(١) في خ: «ورسوله»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٢) البخارى في المغازى (٤٠٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠١ / ١١٩)، والسيرة النبوية لابن هشام (٣ / ١٢ - ١٩)، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ٢٤ - ٢٦) .